سياسة الرسول الكريم (ص) مع أهل الكتاب ((النصارى أنموذجا))

أ.م.د. رحيم حلو محمد البهادلي
كلية التربية للبنات / جامعة البصرة

جاء الرسول محمد بن عبد الله (ص) برسالة سماوية سمحاء وبصفته خاتما للأنبياء لم تختص دعوته للإسلام بطائفة معينة ، إنما كان محمد (ص) نبيا مرسلا لجميع البشر على وجه هذه المعمورة ، قال الله تعالى : " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " (١) ، وقوله تعالى أيضا : " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (٢) ، إذ لم يحصر الله عز وجل ويحدد دينه الإسلام بقوم أو طائفة أو مجموعة لا في إقليم أو بلد أو مدينة معينة ، إنما كان الإسلام والماثل في رسالة محمد (ص) مفتوح لجميع الجنس البشري ، ويؤكد الرسول (ص) ذلك بدوره لخاصة الناس وعامتهم أيضا بقوله : " أرسلت إلى الأبيض والأسود والأحمر " (٣) ، وعلى هذا وضع الرسول محمد (ص) منهاجه الدقيق في البدء بنشر الدعوة أولا بين أبناء قومه في مكة ، ولما شاهد فيهم الاجحاد تركهم متوجها إلى يثرب والتي استقبلته بحفاوة متقبلين دعوته ودينه الجديد ، وقد استطاع الرسول محمد (ص) بفضل نصرة أهل المدينة أن ينشر الدين الإسلامي ، وان يكون له فيها قواعد قوية استطاع بموجبها فيما بعد أن يطمئن لنشر هذا الدين إلى أفاق أوسع . وبين هذا وذاك كان لابد أن يصطدم الرسول محمد (ص) ويتقاطع مع أصحاب الديانات السماوية الأخرى ، وهم اليهود والنصارى والذين كانوا يرون أنفسهم في مكانة ومنزلة أعلى شأنا من الأخر ، فكيف الحال والدين الإسلامي أصبح من وجهة نظرهم دينا ثالثا منافسا لهم ، وهو لم يكن كذلك بقدر ما أراد هذا الدين تصحيح ما ذهبت وابتعدت عنه هذه الأديان السماوية عن أصولها وما جاءت به من مبادئ عن طريق أنبياءه موسى وعيسى (عليهما السلام) .

لذلك كانت مهمة الرسول محمد (ص) مع أهل الكتاب أصعب من مهمته مع أبناء جلدته في مكة من عبدة الأوثان ، وقد عانى الرسول (ص) الأمرين من سوء معاملة وتصرف أهل الكتاب في أثناء نشر دعوته الإسلامية ، فقد كانت مؤامراتهم ودسائسهم اشد وأقوى وكان عنادهم أدهى وأخبث من أولئك العرب الوثنين ، بل حتى صراعه مع مشركي قريش كانت تحركه قوى غامضة وما كان عليهم سوى التنفيذ ، وقد لا نغالي أن وضعنا أصابع الاتهام على أهل الكتاب بالذات اليهود منهم ، فقد كان دورهم في تلك الأحداث العنيفة التي واجهها الرسول (ص) مع مشركي قريش كمن كان يصب الزيت على النار ، ولعل معركة الخندق التي دعى فيها اليهود سادات مكة لحرب المسلمين دليلا قويا على ما ذهبنا إليه ، بل أن حتى حادثة وفاته (ص) كانت بتخطيط وتنفيذ يهودي فبعيد غزوة خيبر عام ٧ هـ بقليل ، أمر اليهود امرأة منهم يقال لها زينب بنت الحارث اليهودية فجاءت للرسول (ص) بشاة مسمومة فأكل شيئاً منها وسرعان

ما أحس بالسم ولفظ ما تناوله بسرعة ، ومات منها أحد أصحابه وهو بشر بن البراء بن معرور الأنصاري (٤) ، ومع أن ذلك الطعام لم يودي بحياة الرسول (ص) في وقتها لكن نعتقد جازمين أنه كان السبب في وفاته وذلك لقول الرسول (ص) : " ما زالت أكلة خيبر تعاودني ، فهذا أوان قطعت أبهري " (٥) .

وحيال مؤامرات أهل الكتاب تلك نجد أن تعامل الرسول (ص) وخلقه معهم كان خلقا رفيعا متبعا معهم منهجا قائما على الود والاحترام والسماع من الطرف الأخر في اغلب الأحيان ، فلم يكن الرسول (ص) فارضا عليهم الدين الإسلامي بقوة السيف إنما كان هناك نوع من الخيار لأهل الكتاب ووفق ما جاء به القرآن الكريم ، قال الله تعالى : " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم " (٦) ، فمن يريد الدخول في دين الإسلام من أهل الكتاب فله ذلك ، ومن يريد البقاء على دينه فله ذلك أيضا على أن يؤدي ما عليه من الجزية ، وخلاف ذلك لا مفر إذن من الحرب وهذا ما صرح به الرسول (ص) في كتابه إلى أساقفة نجران حين قال : " بسم الله ، من محمد رسول الله إلى أساقفة نجران : بسم الله فاني احمد إليكم اله إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب ، أما بعد ذلكم فاني ادعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وادعوكم إلى ولاية العباد ، فان أبيتم فالجزية ، وان أبيتم آذنتكم بحرب والسلام " (٧) .

فمن هذا يتضح أن الرسول (ص) كان سياسيا بارعا وفي غاية الخلق وقمة الدبلوماسية وروعة التعامل مع أهل الكتاب ، فهو لم يفرض الإسلام بقوة السيف إنما كانت أطروحته واضحة وشعاره قد أضاء نوره للجميع ، لكن المشكلة كانت تكمن في من يعتنق الإسلام ثم يرتد فهذا عندئذ مرتد والمرتد كافر والكافر مشرك بالله ورسوله والمشرك بالنار ، وعلى ذلك كانت دعوة الرسول (ص) إلى الإسلام ومنهم النصارى .

والنصارى والحق يقال كانوا اخف وطأ وألين عريكة من اليهود على الرسول (ص) والمسلمين ، فقد كان اليهود اشد عداوة وأكثر شراسة وذاك أمر طبيعي طالما أن المسيحية جاءت لتجب ما قبلها وهي اليهودية ، فقد كانت اليهود تعاني من ما نزل من دين على السيد المسيح (ع) فماذا ننتظر من اليهود أن تفعل حيال الإسلام وقد جاء ليجب الاثنين معا اليهود والنصارى ، لذلك كانت خيوط التفاهم مع النصارى أسهل والتعامل أيسر ، على اقل تقدير أن الاثنين عانى الأمرين من سوء تصرف اليهود معهما .

ونجد في كتب السيرة والتاريخ أن المعاملة كانت حسنة إلى حد ما بين المسلمين والنصارى ، وان العداوة والبغضاء كانت في أدنى مستوياتها ، وان لغة التفاهم والحوار والاحترام كانت في أوجها ، وذلك نابع كما اشرنا إلى تقارب مفهوم الدينان والى خلق وتعامل الرسول (ص) مع الجميع بما فيهم النصارى ، وعلى العكس من اليهود نجد النصارى تهب على الرسول (ص) وهو في مكة قبل هجرته إلى يثرب لعلهم سمعوا بهذا الدين وصدقوه بل وامنوا به ، وذلك باعتقادي لم يحدث إلا بعد أن شاهدوه وسمعوا وأبصروا أخلاق ومزايا الرسول (ص) مع الجميع في تعامله وخلقه النبيل ، إذ يروي لنا ابن اسحق أن نفرا من النصارى جاءوا الرسول (ص) في مكة ليسألوه عما جاء به وهم على علم بذلك ، فدعاهم إلى الإسلام

وتلا عليهم شيئا من القرآن ، ولما سمعوا منه فاضت أعينهم دمعا فأمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان قد جاء في الإنجيل وما وعدهم به عيسى (ع) (٨) ، ويقال نزلت فيهم الآيات (٩) : " الذين أتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا أمنا به انه الحق من ربنا إنا كنا قبله مسلمين " (١٠) .

ويبدوا أن خيوطا جديدة مع النصارى بدأت تظهر وان شمسها بدأت تشرق ، فما كان الرسول (ص) ليبعث بأصحابه إلى الحبشة ما لم تكن علاقته بالنصارى حسنه ، وما كان أيضا أن يجازف تلك المجازفة الخطيرة ما لم يكن ضامنا خطوطا أمينة وطيبة كانت تجمعه والنصارى معا ، فكان (ص) مطمأنا لهم أكثر من اطمئنانه لليهود وإلا لكان أمرهم بالرحيل إلى يثرب منذ البداية ، وتلك المعاملة الحسنة مع النصارى في الحبشة عكست على لسان جعفر بن أبي طالب حينما اخذ يظهر محاسنهم في الدين الإسلامي ، ويعكس نظرة الإسلام والمسلمين تجاههم حين اخذ يتلو عليهم ما نزل من الله عز وجل على الرسول (ص) ما جاء نصه في القرآن الكريم : " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكان شرقيا * فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشر سويا * قالت إني أعوذ بالرحمن منك أن تكن تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا " (١١) . ثم حسنت العلاقة بين الطرفين بعد أن كتب له الرسول (ص) يدعوه إلى الإسلام ، فأجابه النجاشي إلى ذلك واسلم رغم المعارضة الكبيرة لأهالي الحبشة في بادئ الأمر قائلا له : " أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض أن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقا (١٢) انه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقد قرينا ابن عمك وأصحابه فاشهد انك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين وقد بعثت إليك بابني أرها بن الاصحم بن ابجر فاني لا املك إلا نفسي وان شئت أتيك فعلت يا رسول الله فاني اشهد أن ما تقول حق والسلام عليك يا رسول الله " (١٣) ، وكنوع من أنواع تبادل الخواطر طلب الرسول (ص) من النجاشي ملك الحبشة أن يخطب له أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان من ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص وكان اقرب قريب لها هناك فضلا عن كونه مسلما ، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة وتوفي عنها زوجها عبيد الله بن جحش الاسدي متنصرا ، فخطبها له النجاشي من ابن عمها خالد وحملت إليه من الحبشة إلى مكة وتزوج بها ، ودفع لها النجاشي مهرا من خالص ماله عن الرسول (ص) وكان أربع مائة دينار (١٤) وقيل تسعمائة دينار (١٥) ، وجهزها أيضا بألوان كثيرة من العطور كالعود والورس والعنبر والزباد (١٦) .

وبرأيي أن الرسول (ص) لم يكن قلقا من مشركي قريش بقدر ما كان قلقا من أهل الكتاب ، فمن السهل إذابة الوثنيين في الدين الجديد ، وما كان هؤلاء ليصمدوا أمام ضربات المسلمين لعدم امتلاكهم معتقد قوي كما هو الحال عند أهل الكتاب ، لذلك اتجه الرسول (ص) إلى اللين والتسامح والتهادن مع أهل الكتاب ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولما وجد أن الباب قد أوصد أمامه من قبل اليهود وأنهم جادين

في استئصاله ورفضه فليحاول مع النصارى لعل يجد فيهم ناصرا وملجأ أمنا ، لذلك انصبت جهوده إلى مهادنة النصارى وتيسير جميع السبل التي من شأنها الوصول إلى نقاط اتفاق ولو سياسيا بعيدا عن الدين والمعتقد .

وعلى هذا نجد الرسول (ص) يحاول جادا مرارا وتكرارا أن يروض النصارى وان يجعل منهم طرفا محايدا أن لم يستطع أن يخلق منهم حليفا قويا سواءاً كان في السياسة أم في الدين ، وإذا كانت خطوته الأولى مع النجاشي قد أفلحت فليحاول مرة أخرى مع النصارى ولكن هذه المرة مع ملك أخر من ملوكهم وهو المقوقس صاحب مصر وعظيم القبط ، وكان هذا الملك على دين النصرانية وقد أوتي حكمة ومعرفة كبيرة ولا بد للرسول (ص) أن يختار لهذه المهمة شخصا لا يقل علما ومعرفة عن جعفر بن أبي طالب ذلك الرجل الذي نجح في مهمته إلى النجاشي صاحب الحبشة ، فاختار الرسول (ص) حاطب بن أبي بلتعة سفيرا لصاحب مصر ، وكان اختياره لحاطب اختيارا موفقا ومبني على أسس قوية ، فحاطب احد فرسان العرب قبل الإسلام ثم هو صاحبي جليل القدر في الإسلام ، وهو أيضا من المسلمين المهاجرين الأوائل ومن الذين صقلتهم المشاهد وزادت من خبرتهم السنون إذ شهد الرجل المشاهد جميعها مع الرسول (ص) (١٧) ، هذا يعني انه كان مؤهلا تماما لهذه المهمة الكبيرة والخطيرة في نفس الوقت ، إذ لم يختاره الرسول (ص) ناقلا لرسالة مكتوبة فحسب ولكن أراده أن يكون مرتجلا إن تطلبت الحاجة الارتجال ، فقدم مصر والتقى هناك في الإسكندرية ملكهم المقوقس الذي استقبله خير استقبال وأكرمه خير إكرام ، إذ جمع جميع بطارقته وأعوانه ليتلقى رسالة الرسول (ص) إليه إلى الإسلام بحضور الجميع ، فقبل المقوقس رسالة الرسول (ص) وقرأ ما فيها من الدعوة إلى الإسلام ، ثم اخذ المقوقس يسأل حاطباً عن مكنونات الرسول (ص) بين قومه ، فكان حاطب يرد على الملك بحكمة وعقلانية كبيرة جعلت منه محط إعجاب الملك قائلا له : " أنت حكيم " (١٨) .

وفي تقديري أن المقوقس حتى لو كان لم يراد منه الإسلام فان اقل تقدير كان يرجوه الرسول (ص) تأيده له أو الوقوف على الحياد ، ويبدوا أن في نية المقوقس الإيمان برسالة الرسول (ص) لكن لا سبيل إلى ذلك مع امة تدين باجمعها بدين النصارى وبعيدة كل البعد عن ارض الرسول (ص) الداعي إلى الإسلام ، ويتضح ذلك من قوله لحاطب : " القبط لا يطاوعونني في إتباعه " (١٩) ، فاكتفى المقوقس بمراعاة شعور المسلمين ومد يد الصداقة لهم إيمانا منه بان نبيا سيظهر بقوله ردا على رسالة الرسول (ص) : " قد علمت أن نبيا قد بقي " (٢٠) ، وبعث مع حاطب إلى الرسول (ص) جملة هدايا فيها كسوة وجواري وفيهن مارية القبطية والدة إبراهيم ابن الرسول محمد (ص) وأختها سيرين التي وهبها الرسول (ص) لأحد أصحابه حسان بن ثابت وكذلك بعث له بغلام وبغلة بيضاء (٢١) ، وجميع تلك الهدايا تعكس طبيعة المعاملة الحسنة التي وصل إليها الطرفين أو على اقل تقدير أن لا نية للعداء والبغضاء بين الطرفين ، وإذا لم يكن الرسول (ص) قد حقق في تلك السفارة مردودا ديني فهو على اقل تقدير قد

فاز بالمهادنة السياسية وهو ما يحتاجه في الوقت الحالي ، تاركا إسلام هؤلاء للزمن الذي قد يغير ما في نفوس هؤلاء .

أما في الشام فقد كانت النصرانية في أوجها وعظمتها حيث تتمثل هناك أولا بالعرب الساكنين هناك من الغساسنة وقبائل كلب وتغلب وغيرها ، وثانيا تتمثل بالروم الغزاة ، وقد بعث الرسول (ص) إلى ذلك الإقليم الواسع رجلين هما دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر الروم ، وشجاع بن وهب الاسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الغساسنة في دمشق ، وكان كلا من قيصر الروم وملك النصارى العرب تجمعهم رابطة الدين وآصرة السياسية فقد كان الحارث تابعا سياسيا لقيصر الروم ويأتمر بأمره ، بمعنى أن الرسول (ص) كان حينذاك بمواجهة أقوى قوة سياسية عرفها العالم آنذاك ، ولا بد له يحسن التقدير والتصرف حيال كل من هؤلاء لان الاختلاف معهم يعني إدخال العرب المسلمين في أتون حرب إن عرف أولها فقد لا يعرف أخرها ، في وقت كان فيه المسلمين محاطين بأعداء كثر سواء من العرب الوثنيين أو من اليهود والفرس وغيرهم ، فاختار الرسول (ص) دحية بن خليفة الكلبي وافدا لقيصر الروم ولم يكن اختياره عشوائيا إنما كان دحية من كبار الصحابة الذين شهدوا معظم المشاهد الكبرى مع الرسول (ص) ، ثم انه كان على معرفة كبرى بالشام وطرقها وبصيرا بملوكها وانه كان يتاجر هناك في الإسلام (٢٢) ، وشخص بهذه المواصفات لا بد انه كان يتكلم الرومية أيضا .

ويبدوا أن كبار الروم كانوا على علم ومعرفة كبيرة بنبوة الرسول (ص) ، فما أن استلم قيصر كتاب الرسول (ص) عرف انه النبي المنتظر الذي أشار إليه نبي الله عيسى (ع) ، فأمن به قيصر من وقتها ولكن لا سبيل إلى ذلك ما لم يؤمن به جميع بطارقة النصارى وعامة الشعب ، فجمعهم القيصر ودعاهم إلى الإسلام قائلا لهم : " يا معشر الروم ، إني قد جمعتكم لخير ، انه قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه ، وانه والله للنبي الذي كنا ننتظره ونجده في كتبنا ، فهلموا فلنتبعه ونصدقه ، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا " ، ولكنهم لم يجيبوه وحاولوا قتله لولا تراجعه عن مقولته مدعيا انه ما كان إلا يختبرهم (٢٣) ، وقيل أن قيصر الروم بعث دحية إلى رجل من كبار أساقفة الروم يسمى ضغاطر قائلا لدحية : " والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل ، وانه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ، ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته ، فاذهب إلى ضغاطر الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم ، فهو والله أعظم في الروم مني ، وأجوز قولا عندهم مني ، فانظر ما يقول لك " ، وحينما ذهب دحية إليه امن بدعوة الرسول (ص) ، ثم جمع ضغاطر الروم قائلا لهم : " يا معشر الروم ، انه قد جاءنا كتاب من احمد ، يدعوننا فيه إلى الله عز وجل ، واني اشهد أن لا اله إلا الله ، وان احمد عبده ورسوله " ، لكنهم سخروا منه وقتلوه (٢٤) . وعلى هذا نرى إن كبار قادة الدولة ورجال دينهم الكبار قد اسلموا وهم يؤمنون حقا لكن كان يحول دون إعلان ذلك وتبنيه الخوف من عامة الشعب النصارى ، إذ صرح قيصر الروم قائلا أيضا : " ولكن لا استطيع أن اتبعه يذهب ملكي ويقتلني الروم " (٢٥) . ثم أكرم القيصر دحية خير إكراما وبعث به إلى الرسول (ص) مع جملة من الهدايا وكتب للرسول (ص) كتابا جاء فيه : " إلى احمد رسول الله

الذي بشر به عيسى من قيصر ملك الروم : انه جاءني كتابك مع رسولك واني اشهد انك رسول الله نجدك عندنا في الإنجيل بشرنا بك عيسى بن مريم واني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا ، ولو أطاعوني لكان خيرا لهم ، ولوددت إني عندك فأخدمك واغسل قدميك " ، ولما ورد الكتاب على الرسول قال : " يبقى ملكهم ما بقي كتابي عندهم " (٢٦) .

أما الحارث بن أبي شمر الغساني ملك العرب النصارى فقد بعث الرسول (ص) له كما اشرنا شجاع بن وهب الاسدي ، وشجاع شخصية عظيمة وأحد أمراء السرايا الكبار في غزوات الرسول (ص) إذ شهد جميع المشاهد مع الرسول (ص) (٢٧) ومن الصحابة الذين كان يعتمد عليهم الرسول (ص) في المهام الكبيرة حتى انه بعثه أيضا إلى ملك الفرس كسرى لنفس الغاية (٢٨) ، ولكن شجاع لما وصل إلى الحارث عومل معاملة سيئة وحجب عن الملك أياما ثم ادخل عليه ، والعجيب بالأمر أن ملوك النصارى الأجانب كانوا أرحب وجها وألين عريكة من ملوك النصارى العرب ، فمع أن ملك الروم كان متعاطفا مع الرسول (ص) نجد ملوك العرب جاحدين له ولدعوته إلى الإسلام ، فقد رفض الحارث بن أبي شمر الغساني قبول دعوة الرسول (ص) إلى الإسلام ورمى بكتاب الرسول (ص) أرضا مع أن الرسول (ص) لم يقدم له على أمر سيء سوى الدعوة إلى الإسلام أو المهادنة ، لكن غرور الحارث دفعه إلى الاستهانة بمقدرات الرسول (ص) والإسلام ، وحاول الحارث المسير إلى الرسول في المدينة وقتاله لولا نهي قيصر له عن المسير فما الحارث إلا مؤتمرا بأمر قيصر الروم ، وربما أراد الحارث بذلك نيل رضا قيصر الروم وانه على دينه وتحت إمرته وطاعته حتى لو اقتضت الضرورة قتال أبناء جلدته من العرب ، ولما تناهى ذلك الخبر للرسول (ص) قال فيه " باد ملكه " (٢٩) . وأورد ابن هشام أن الرسول (ص) بعث بشجاع بن وهب الاسدي إلى جبلة بن الايهم الغساني لنفس الغاية (٣٠) ، وانه اسلم يومذاك على حد إشارة ابن كثير (٣١) ، وفي هذا إشكال لان جبلة لم يسلم إلا في خلافة عمر بن الخطاب (رض) وقد اشترك في معركة اليرموك إلى جانب الروم ضد المسلمين ثم اسلم وارتد في خلافة عمر أيضا لأنه يرى نفسه أعلى شأنا من عموم المسلمين فترك الإسلام وعاد إلى النصرانية (٣٢) .

وإذا كان قيصر الروم قد هادن الرسول (ص) فلا بد لمن كان على دينه وتحت إمرته أو قريبا من ذلك من العرب النصارى أن يرضخوا لقبول التهادن والخضوع ولو سياسيا للرسول (ص) ، في وقت كانت فيه نفوذ الرسول (ص) في تزايد والإسلام في أوج قوته أمام بعض مناطق العرب النصارى ، فرضخت تلك الأطراف النصرانية إلى مطالب الرسول (ص) الواضحة وهي أما الإسلام أو الجزية أو الحرب فاختارت اغلبها الجزية ، ووقعت اتفاقيات هدنة مع الطرفين مقابل مبالغ معينة كان يفرضها المشرع الإسلامي وهو الرسول (ص) مقابل توفير كافة السبل التي من شأنها ضمان حرية هؤلاء والدفاع عنهم أمام من يريد الاعتداء عليهم ، ومن تلك النصارى نصارى آيلة وجرباء واذرح وغيرها (٣٣) ، في حين اختارت مدن نصرانية عربية أخرى الحرب وذاك ما حصل في معركة مؤتة سنة (٨ هـ) حينما قتل

شرحبيل بن عمرو الغساني مبعوث الرسول الحارث بن عمير الازدي إلى ملك بصرى ، وكانت معركة استشهد فيها خيرة أبطال العرب المسلمين آنذاك وفيهم جعفر بن أبي طالب (ع) (٣٤) .

وبعد أن شعر الرسول (ص) بالطمأنينة والأمان من كبار ملوك النصارى الأجانب المحيطين بشبه الجزيرة العربية وهي مهبط الوحي ومكان الرسالة المقدسة ، كان لابد له من التوجه إلى نصارى العرب المستقلين عن سلطان الشام لمعرفة مكنوناتهم ونواياهم تجاه الدين الإسلامي الجديد ، وليصنف من له استعداد منهم لمؤازرته دينيا والدخول في الإسلام منهم ، ومن يستطيع مهادنته منهم فيأخذ الجزية ويقي شرهم ، ومن يكون قباله في ساحة الحرب والقتال ، ونصارى العرب على العموم منتشرين في كافة أرجاء الجزيرة العربية ، لكن المنطق يحتم على اختيار المناطق ذات الأغلبية ومن لهم ثقل كبير وتأثير واسع ، فوقعت أنظار الرسول (ص) على مدينة نجران التي تقع شمال اليمن باتجاه مكة (٣٥) ، وكانت أهل نجران عبدة أوثان ثم وفدت عليها المسيحية عن طريق رجل يسمى عبد الله بن الثامر ونشر فيها المسيحية قبل الإسلام بكثير (٣٦) ، ونجران بطبيعتها قريبة إلى سواحل البحر الأحمر ولها تجارة رائجة مع بلاد الحبشة النصرانية ، وربما ذلك ممن ساعد كثيرا على انتشار النصرانية بين عرب نجران على مر التاريخ قبل الإسلام ، فكتب الرسول (ص) لهم كتابا جاء فيه : " إلى أسقف نجران اسلم تسلم ، فاني احمد إليكم اله إبراهيم واسحق ويعقوب ، أما بعد فاني ادعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وادعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فان أبيتم فالجزية فان أبيتم آذنتكم بحرب والسلام " (٣٧) .

وزاد من خطورة هؤلاء أنهم لم يفدوا على الرسول (ص) بعد فتح مكة في وقت تتالت عليه الوفود من كل جانب في السنة التاسعة وما بعدها ، لتعلن إسلامها وتأييدها للرسول (ص) والدين الإسلامي الجديد ولو ظاهريا ، وكان من ضمن تلك الوفود نصارى أيضا جاءوا للرسول (ص) وأعلنوا الإسلام ومنهم وفد عبد القيس بزعامة الجارود بن عمروا وكانوا نصارى حضروا الرسول (ص) وأعلنوا الإسلام ، ويبدوا أنهم اسلموا مخافة الرسول (ص) والإسلام في أوج قوته بدليل أنهم ارتدوا بعد وفاة الرسول (ص) (٣٨) .

ويبدوا أن الرسول (ص) أعار تحديد موقف النصارى من الإسلام أهمية كبرى ليطمئن على الإسلام منهم وهم من الكثرة بحيث كانوا منتشرين هنا وهناك في اغلب بقاع الجزيرة العربية جنوبا وشمالا ، وإلا كان بمقدوره أن يترك تلك القضية لولاته على أرجاء الجزيرة ومنها اليمن مثلا وان يكتفي هو بإدارة الدولة من المدينة ، ومن هنا جاء التركيز على النصارى ، كما يبدوا أن الرسول (ص) لم يكتفي بالكتاب أعلاه إلى نصارى نجران ، ولعل هناك متابعة دقيقة من الرسول (ص) جعلت هؤلاء لا يهملون الرضوخ أمام حكومة الرسول (ص) والوفود إلى المدينة بهذا العدد الهائل من الأساقفة ، كما أهملوا ذلك قبل وصول الإمام علي بن أبي طالب (ع) حين بعثه الرسول إلى احتواء اليمن التي رفض أهلها الرضوخ لخالد بن الوليد من قبله (٣٩) ، ولا يستبعد أن يكون الإمام علي (ع) قد لعب دورا كبيرا في متابعة هذه القضية ، إلى الدرجة التي جعلتهم يشكلون وفدا كبيرا مكونا من أكثر من ستين شخصية من ساداتهم ، ويبدوا أن الرسول (ص) أيضا لم يكن يرجوا منهم الإيمان بالإسلام إيمانا مطلقا بقدر ما أراد أن يحدد موقف هؤلاء

من دعوته إلى الإسلام ، فهو يعلم تمام العلم أنهم لا يوافقوه أبدا على الإسلام بالذات وهم يمثلون كبار النصارى آنذاك في اليمن على اقل تقدير ، فلو كان لهم الاستعداد للإيمان بالإسلام لكانوا حقا قد امنوا بدينهم ونبيهم عيسى (ع) تمام الإيمان ، وذاك واضح تمام الوضوح حينما دخلوا على الرسول (ص) بزعامة أربعة عشر فيهم أميرهم العاقب عبد المسيح والسيد وهو الاتهم وأبو حارثة بن علقمة ، واوس بن الحارث وآخرين ، طلبوا منه شيء من التعجيز لإحراج الرسول (ص) بحسب ما يعتقدون من ذلك قولهم له : " ما تقول في عيسى " ، فلم يجيب الرسول (ص) عليهم إلا بما ينزل عليه فجاءهم من الغد بما انزل من الله مرددا قوله تعالى : " مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونسائنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين " (٤٠) ، ولكنهم امتنعوا من المباهلة وهي الملاعنة بعد أن حذرهم العاقب عبد المسيح من عاقبة ملاعنة الرسل والأنبياء ، فصالحوا الرسول على دفع الجزية ورجعوا إلى نجران وطلبوا منه أن يبعث معهم رجلا أمينا فبعث أبا عبيدة بن الجراح (٤١) ، وهذا اضعف الإيمان .

إن المتتبع لكبار نصارى نجران يجد أنهم كانوا يؤمنون حقا برسالة الرسول (ص) ولكن كان يمنعهم منه فقدان مراكزهم وذهاب امتيازاتهم ، فهذا العاقب عبد المسيح يقول لأصحابه : " يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمد لنبي مرسل " (٤٢) ، ثم انه مع السيد جاؤوا للرسول بفترة واسلموا ، وكذلك كان حال أبو حارثة بن علقمة فقد روي انه في وقت خروجهم من نجران قال لرجل منهم يقال كرز بن علقمة : " والله انه النبي الأمي الذي كنا ننتظره " فقال له كرز : " وما يمنعك من إتباعه وأنت تعلم هذا " ، فرد عليه أبو حارثة : " ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا وأخدمونا ، وقد أبو إلا خلافه ، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى " ثم اسلم لاحقا (٤٣) ، وهذا يعني أنهم مؤمنون حقا بدعوة الرسول (ص) ، ولذلك نجدهم يماطلون معه لكيلا يضع عليهم الحجة ويعتنقوا الإسلام وهذا ما لا يرضى به عموم النصارى . والرسول (ص) بدوره كان يعي بدقة خطورة الموقف لذلك كان على استعداد بالاكتفاء بالمهادنة وهي على العموم محاولة فان أفلحت فهو انجاز وان لم تفلح فهو انجاز أيضا ولكن من وجه أخر .

ومهما يكن من أمر فان هدف الرسول واضح أما الإسلام أو المهادنة وهو الذي حصل عليه الرسول وفق الكتاب الذي كتبه إليهم واتفق الطرفان عليه ونصه : " من محمد النبي للأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير جوار الله ورسوله ، لا يغير أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا ما كانوا عليه من ذلك ، جوار الله ورسوله أبدا ما أصلحوا ونصحوا عليهم ، غير مبتلين بظلم ولا ظالمين " (٤٤) .

وبعد .. فتلك محاولة بسيطة لتسليط الضوء على طبيعة السياسة التي انتهجها الرسول (ص) مع النصارى العرب وغيرهم بصورة عامة ، ونحن لم نذكر جميع تلك الأحداث مع جميع النصارى إنما اخترنا نماذج منها وهي تصلح أن تكون دراسة تحليلية موسعة لمن يروم ذلك من الباحثين ، والله الموفق .

الهوامش

١- سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

٢- سورة سبأ ، الآية ٢٨ .

٣- الطوسي : الامالي ، ص٤٨٤ .

٤- ينظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ، (دار صادر . بيروت / د . ت) ، ٢ / ١٠٦ – ١٠٧ ، ٢٠٠ ؛ ابن حمزة الطوسي : الثاقب في المناقب ، (تحقيق : الأستاذ نبيل رضا علوان ، ط٢ ، مؤسسة انتصارات – قم المقدسة) ، ص٨٠ – ٨٢ ؛ ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تميز الصحابة ، (تحقيق : الشيخ عادل احمد عبد الموجود ، ط١ ، دار الكتب العلمية – بيروت / ١٤١٥ هـ) ، ٨ / ١٥٥.

٥- ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، (تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م) ، ١٠ / ٢٦٧ . وينظر السيوطي : الجامع الصغير ، (ط١ ،

دار الفكر – بيروت / ١٤٠١ هـ) ، ٢ / ٤٩٧ ؛ المتقي الهندي : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، (تحقيق : الشيخ بكري حياني ، والشيخ صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) ، ١١ / ٤٦٦ .

٦- سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

٧- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، (دار صادر – بيروت ، د . ت) ، ٢ / ٨١ .

٨- ابن هشام : السيرة النبوية ، (تحقيق : سهيل زكار ، ط١ ، دار الفكر – بيروت ، ١٩٩٢ م) ، ١/ ٢٦٣ .

٩- الطبرسي : تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن ، (تحقيق : لجنة من العلماء ، ط١ ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات – بيروت ، ١٤١٥ هـ) ، ٧ / ٤٤٥ ؛ القرطبي : تفسير القرطبي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ١٤٠٥ هـ) ، ١٣ / ٢٩٦ .

١٠- سورة القصص ، الآيات ٥٢ ، ٥٣ .

١١- سورة مريم ، الآيات ١٦ – ٢١ .

١٢- الثفروق : في اللغة يعني قمع التمرة ، وهو كناية عن قلة الشيء . ينظر ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث (تحقيق : طاهر احمد الزاوي ، محمود محمد الطناحي ، ط٤ ، مؤسسة اسماعيليان – قم ، ١٣٦٤ هـ) ، ١ / ٢٠٩ ؛ الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، (مكتبة الحياة – بيروت ، د . ت) ، ٦ / ٣٠٤ .

١٣- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (تحقيق:نخبة من العلماء الأجلاء ، مؤسسة الاعلمي . بيروت / د . ت) ، ٢ / ٢٩٤ . وينظر ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، (نشر اسماعيليان . طهران / د.ت) ، ١ / ٦٢ .

١٤ – ينظر ابن هشام : السيرة النبوية ، ٤ / ١٠٥٩ ؛ الطبري : تاريخ ، ٢ / ٤١٤ – ٤١٥ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية ، (تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، ط١ ، دار المعرفة – بيروت / ١٣٩٦ هـ) ، ٣/٢٧٤ – ٢٧٥ .

١٥- ابن سيد الناس : عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، (مؤسسة عز الدين – بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) ، ١ / ١٥٦ .

١٦- ابن الجوزي : صفة الصفوة ، (ط١ ، دار الجيل – بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) ، ١ / ٣٥٧ .

١٧- ينظر عنه ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٣ / ١١٤ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة ، ١ / ٣٦٠ – ٣٦٢ ؛ ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ، ٢ / ٤ – ٥ .

١٨- ينظر ابن كثير : السيرة النبوية ، ٣ / ٥١٤ – ٥١٥ ؛ ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ٢ / ٣٣١ – ٣٣٢ .

١٩- ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ٢ / ٣٣٢ .

٢٠- المجلسي : بحار الأنوار ، (مؤسسة الوفاء – بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ، ٢٠ / ٣٨٣ .

٢١- ينظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٨ / ٢١٢ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية ، ٣ / ٥١٥ ؛ المجلسي : بحار الأنوار ، ١٦ / ١٢٦ ؛ ٢٠ / ٣٨٣ .

٢٢- ينظر ابن عساكر : تاريخ دمشق ، (تحقيق : علي شيري ، دار الفكر . بيروت ، ١٤١٥ هـ) ، ١٧ / ٢٠١ وما بعدها ؛ ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٢ / ٣٢١ – ٣٢٣ ؛ المجلسي : بحار الأنوار ، ٨٦ / ١٣٢ .

٢٣- الطبري : تاريخ ، ٢ / ٢٩٢ .

٢٤- المصدر نفسه ، ٢ / ٢٩٢ – ٢٩٣ .

٢٥- ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ١٧ / ٢٠٩ .

٢٦- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٢ / ٧٧ – ٧٨ .

٢٧- ينظر ابن سعد :الطبقات الكبرى ، ٣/ ٩٤ – ٩٥؛ ابن حجر العسقلاني : الإصابة ، ٣ / ٢٥٦ .

٢٨- ينظر ابن كثير : البداية والنهاية ، (تحقيق :علي شيري ، ط١، دار إحياء التراث العربي – بيروت/١٤٠٨ هـ) ، ٤/ ٣٠٦ .

٢٩- ينظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٦١ ؛ المجلسي : بحار الأنوار ٢٠ / ٣٩٤ .

٣٠- ابن هشام : السيرة النبوية ، ٤ / ١٠٢٦ .

٣١- ابن كثير : البداية والنهاية ، ٨ / ٦٩ .

٣٢- المصدر نفسه ، ٨ / ٦٩ – ٧٠ .

٣٣- ينظر ابن هشام : السيرة النبوية ، ٤ / ٩٥٢ – ٩٥٣ ؛ الطبري : تاريخ ، ٢ / ٣٧٢ – ٣٧٣ ؛ الشيخ الطوسي : المبسوط ، (تحقيق:محمد تقي الكشفي،المطبعة الحيدرية – طهران ، ١٣٨٧ هـ) ، ٢ / ٣٨ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية ، ٤ / ٢٩ – ٣٠ .

٣٤- ينظر خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، (تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر – بيروت / ١٤١٤ هـ) ، ص٥٢ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٤ / ٣٤٣ ؛ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ٢ / ٧ وما بعدها .

٣٥- ينظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (دار إحياء التراث العربي . بيروت / د . ت) ، ٥ / ٢٦٦ .

٣٦- ينظر اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ١ / ١٩٩ ؛ الطبري : تاريخ ، ١ / ٥٤١ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥ / ٢٦٧ .

٣٧- ابن كثير : السيرة النبوية ، ٤ / ١٠١ .

٣٨- ينظر ابن هشام : السيرة النبوية ، ٤ / ٩٩٧ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية ، ٤ / ٩٠ – ٩١ .

٣٩- ينظر الطبري : تاريخ ، ٢ / ٣٨٩ – ٣٩٠ .

٤٠- سورة آل عمران ، الآيات ٥٩ – ٦١ .

٤١- ينظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ٢ / ٨٣ .

٤٢- المصدر نفسه والجزء والصفحة .

٤٣- ابن كثير : السيرة النبوية ، ٤ / ١٠٧ .

٤٤- المصدر نفسه / ٤ / ١٠٦ . وينظر أيضا الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، (تحقيق : الشيخ عادل احمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض ، ط١ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م) ، ٦ / ٤٢٠ .